صفحة من كتاب

حنـــين

للأستاذ شكرى فيصل

سكن الكون ، فما فى الكون إلا همسات ... من حديث النجم أو بث المحبين الشكاة ... ينفثون الآهة الحرى ، ويلقون السهاد ... وينادون محبيهم فهل يدرى محبوهم نداء ؟ ... ويثور الدمع فى أجفانهم فيضاً غزيراً ... أترى يدرك ذلك الذين تطفر الدموع من أجلهم ، وتتمتم الشفاه بالحنين إليهم ، وينبض القلب بذكرهم المستطاب ؟ !

سكن الكون ، فثارت وحدتى تتلوى ... وتذكرت العهود الزاهرات النضر ... وتراءت من أمامى صور الماضى القريب . ويحها من صور ! فتنهدت حزيناً أسفاً ، وتمنيت لها منصرفاً ؛ وذرفت الدمع هتاناً إذ وجدت فى الدمع خفوت السورة ، وبرودة الثورة ، وبعض العزاء

* * *

... وصمت الليل ، كأنما كان يعد على الناس أنفاسهم المتصاعدة ... وقد أووا إلى فرشتهم الدافئة ، يجدون فيها الهدوء ، وينعمون فيها بالدفء ... ويحسون أنهم يرتعون فى أحضان الأبوّة ، وفى سماحة الأمومة ، وفى جمال القرابة الدانية

ودقت الساعة الثانية عشرة ، وانبعثت ضرباتها على صفحة الأفق الساكنة ... كأنما كانت اثنتى عشرة قطرة من الماء تنصب على قطعة من الصفيح اللامع ، فيكون لها برنين متلألئ كهذا الصدى الموغل فى جوف الظلام البعيد

وامتد رواق الليل كما يمتد حنين إنسان غريب ... يدّكر الماضى ليجد فيه الذكرى ، ويتطلع إلى المستقبل ليفسح فيه فرجة الأمل ... كذلك كان رواق الليل ، لا يحتجزه حد ولا يقهره سلطان ، ولا يقف من دونه عائق ... كما لا يحتجز الحنين ساوى ولا يقهره ضرّ ، ولا تقف من دونه الدنيا بكل صورها وألوانها إلا هذه النجوم ... لقد كانت فى منجاة ومأمن ... لكأن عالمها الحلو ، وشعاعاتها المتراقصة تكيد لليل وتتحداه ... وكأنما هى فى أنوارها الحنون تبعث فى نفوس المحبين الولهى الأضواء الطروب ...

سيظل هذا الحنين المتصل يهفو حول الأمل الناعم ، ويغرد فى حفافيه الندية ... وينثر عليه الورود والرياحين كما تنثر دنيا النجوم من عالمها العلوى ذراتها اللامعة فى أجنحة الليل السود

* * *

وسكن الكون ... واستلقى الليل على صدر الدنيا . ونشر عليها أذياله وأردانه ... كأنما كان يريد أن يكبت فيها الحركة ، ويقتل فيها النشاط ، ويقطع ما بينها وبين السماء ... كان كالساعات اليائسة فى حياة المحبين ... مرهقة ، ثقيلة الظل شديدة الوطأة ، كأنما تحاول أن ترين فتحول بيننا وبين الرحمة ... ولكن الرحمة القريبة لا تدع السبيل إلى اليأس ، والحب القوى لا تقل منه المصاعب ، والسماء الكريمة لا تقطع ما بينها وبين الناس ... إنها تشق ثوب الليل الصفيق لتنبت النجوم النيرة على ظهره وفى أطرافه ومن بين يديه ... كما تنبت الخزامى فى الأرض القفر عطرة الطيب ، شذية الروح ... وأنها لتمزقه فى كل جوانبه ، وترقه فى كل ثناياه كما ترقم قطرات الماء سطح البحيرة الهادئ بدوائرها المترجرجات

هكذا الحنين ... أيتها الكريمة الرءوم ... كهذا الليل ... تضحك على جوانبه المترعة بالأسى مُنى ، وترق فى ساعاته المريرة رؤى ... وتنثر فى لياليه الكئيبة أحلام بيضاء كهذه النجوم .

* * *

واستغرق الكون فى سكونه . وأحس الليل ما يلقى من عنت . لقد فرض سلطانه فتمزق ... ومد رواقه فتخرق ... ونشر جناحه البهيم فهاض النور جناحه البهيم ... وغص بالحادثات ... والنجوم من حواليه ترقص رقصة الظفر ، وتنشد نشيد الحياة ، وتهزأ هزأ المتحدى ... وترسم شعاعاتها دعوة كريمة للفجر المستكن .

وارتمى يفكر ... واستعرض تاريخه الطويل ، وبكى مجده